

سوسيولوجية اللغة لدى الجاحظ- البيان والتبيين أنموذجا-

The Sociological Aspect of Language according to Al jahidh 'Al Bayan Wa Ettabyine' as a Model

د. أحمد مداني
أستاذ محاضر . قسم الأدب العربي
كلية الآداب والفنون جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف- (الجزائر)
madaniprof@hotmail.fr

ملخص

هذا البحث يدخل ضمن دراسة فرع من فروع اللسانيات وهو سوسيولوجية اللغة ، أو ما اصطلح عليه باللسانيات الاجتماعية أو علم الاجتماع اللغوي، وباستقراء ما جاء في كتاب " البيان والتبيين "، نجد الجاحظ درس ظواهر اللغة كاللهجات بأنواعها، واللكنات الجارية على ألسنة الأفراد في المجتمع، وعلاقة الفصحى باللهجات، والتفاوت الاجتماعي، وعلاقته باللغة، مما يؤكد أن تفكيره اللساني كان يحمل البذور الأولى للدراسات السوسiolسانية، وأن كتبه مشحونة بمسائل لسانية كثيرة ومختلفة، كلها تهتم بالتحليل العلمي والموضوعي للسان البشري، كما أن تحليلاته اللغوية أقلت نظريات مشحونة بمادة علمية لغوية غنية، تشترك مع تلك التي توصل إليها المتخصصون في اللسانيات الاجتماعية الحديثة.

الكلمات الدالة: اللسانيات، اللسانيات الاجتماعية، علم الاجتماع اللغوي، البيان والتبيين، سوسiolسانية، اللسان البشري، اللهجات.

Abstract

The present research aims at studying the sociological aspect of language which is considered as a branch of linguistics known as sociolinguistics. So, in his book entitled "Albayan wa Ettabyine", the author EL Djahidh discusses the subject of linguistic phenomena such as the different kinds of dialects, the various accents used by individuals in the community, the relationship between the classical Arabic and dialects, and the social disparity and its relation with language. This emphasizes clearly that his linguistic thinking paved the way towards many sociolinguistic studies. His books also dealt with diverse linguistic issues; all of which refer to the scientific and objective analysis of the human language. Furthermore, the linguistic analysis of EL Djahidh actually brought significant scientific theories which share plenty of linguistic matters with those which have recently been reached by specialists in the modern sociolinguistics.

Keywords: Linguistics, Sociolinguistics, Modern Sociolinguistics, Linguistic Analysis, Human Language, Dialects.

مقدمة

ضمن الواقع الاجتماعي، منطلقا من الحقيقة اللسانية، وهي اجتماعية اللغة التي قال بها اللسانيون المحدثون، أمثال فرديناند دوسوسير (1973/1857) (F. De Saussure)، وغيره، وصار ماتوصلوا إليه وتوصل إليه، كأنه يخرج من مشكاة واحدة، وهكذا توجه الجاحظ إلى الدراسة العلمية في استقراء اللغات الرسمية واللهجات المحلية، إذ لم يقتصر على دراسة لغة واحدة، بل تجاوزها إلى دراسة لغات أخرى في إطارها الاجتماعي، ويظهر ذلك باقتحامه مجال المقارنة،

تميز الجاحظ (255/159هـ) بعبقريّة استطاع بها أن يكتب في علوم شتى، لاسيما اللغوية منها، حتى وصف بأنه " نسيج وحده في جميع العلوم، علم الكلام والأخبار والفتيا والعربية وتأويل القرآن وأيام العرب، مع ما فيه من الفصاحة"⁽¹⁾، هذه المعرفة الموسوعية، أدت بالجاحظ إلى أن ينقل معارفه اللسانية من حيز التنظير إلى نطاق التطبيق، المتمثل في رصد الظواهر اللغوية

3- اللهجات وعلاقتها بلغة المجتمع.

1 - المنظور الاجتماعي للغة عند الجاحظ

لاريب أن ما لا يختلف فيه باحثان، هو أن معظم الدراسات التحليلية للغة قديما وحديثا، انطلقت من إشكال تظهر في الاستفهام الآتي:

ماهي اللغة؟

انطلاقا من هذا الطرح، فإن الباحث يجد نفسه أمام أعداد كثيرة من البحوث اللسانية، كل منها يهتم بتعريف اللغة، ويحاول معرفة الخصائص اللغوية التي تختص بها اللغات الإنسانية، وقبل الحديث عن المنظور اللساني للغة عند الجاحظ، يجب أن نشير إلى أهم تعريفات اللسانيين في العصر الحديث، حتى تتبين تلك السمات المشتركة، بينها وبين فكرة الجاحظ تجاه اللغة، و نبدأ بقول دوسوسير عن اللغة بأنها نظام من العلامات اللسانية، ونص العبارة الأصلي «Tout langue est un Système particulier de signes linguistiques»⁽⁵⁾، و بقول أندري مارتيني (André martinet): "إن لغة ما، هي أداة الاتصال وفق التجربة الإنسانية التي يختلف استعمالها في كل مجتمع"⁽⁶⁾، ويضيف العالم اللساني فندريس (1809/1893) (Joseph Vendryes) معرفا للغة قائلا: "في أحضان المجتمع تكونت اللغة، وجدت اللغة يوم أحس الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم، فاللغة هي الواقع الاجتماعي بمعناه الأوفى، تنتج من الاحتكاك الاجتماعي"⁽⁷⁾.

إذا تصفح الباحث هذه التعريفات، يجدها عند "دوسوسير" تركز على الجانب العلاماتي للغة، وتلك العلامة يبدو أنها موجودة في المجتمع اللساني بالقوة، كما يجدها أيضا تركز في التعريفين الآخرين على عنصرهما، وهو اجتماعية اللغة، من حيث إنها تجربة إنسانية اجتماعية، تتولد عن الاحتكاك الاجتماعي، وهكذا فإن اللغة في كل صورها اجتماعية، مرتبطة بالحدث التواصل في المجتمع، فلا لغة من دون مجتمع، ولا مجتمع من دون لغة، "إن وجود اللغة يشترط وجود مجتمع، وهنا يتضح العنصر الاجتماعي للغة، فليس هناك نظام لغوي يمكن أن يوجد منفصلا عن جماعة إنسانية تستخدمه وتعامل به، فاللغة ليست هدفا في ذاتها، وإنما هي وسيلة للتواصل بين أفراد الجماعة الإنسانية"⁽⁸⁾، ومن ثم يمكن القول إن اللغة عند جل علماء اللسان البشري تتميز بخاصية ضرورية، تؤثر في تكوينها وتطورها ألا وهي الخاصية الاجتماعية.

عندما نقارن هذا المنظور الاجتماعي الحديث للغة بمنظورها القديم، نجده لا يبعد على ما أثبتته الجاحظ في مؤلفاته، إذ وضع اللغة في إطار التواصل الاجتماعي، حيث يصير لها في نظره وظيفتان، وظيفة اجتماعية، ووظيفة تواصلية، وهذه الوظيفة لا تستطيع الانفكاك عن الوظيفة الاجتماعية، لأن التواصل اللغوي إنما يكون في المجتمع، وهاتان الوظيفتان بنى عليهما الجاحظ نظريته إلى اللغة، عندما فسر مصطلح البيان

بين اللسان العربي وغيره من الألسنة التي تعلمها واحتك بها في عصره، فقد كان عليما باللسان الفارسي، يظهر ذلك في ترجمته لعبارات فارسية إلى العربية في كتاب "البخلاء"، كما أنه كان ذا معرفة بلغة اليونان عن طريق الترجمة، ويعلمهم التي نبغوا فيها، ومن هذه العلوم علم المنطق الذي تبين له أن أرسطو (Aristote) (322/384 ق.م) كان متفوقا فيه، حتى لقبه بصاحب المنطق، وذلك في أبواب كثيرة من كتاب الحيوان، إضافة إلى أنه اطلع على لهجات الأجناس الأخرى، كاللغة الحبشية ولغة السند والنبط وغيرها من اللغات، ومن هنا يتبين أن منهجه مقارب لمنهج اللسانيات الحديثة التي تدرس جميع اللغات واللهجات، متوخية ما كان مشتركا بينها من الخصائص اللسانية، لذا فإن الباحث لا يجد مفهوم علم اللغة لدى الجاحظ، يختلف كثيرا عن تعريف "أندري مارتيني" (1999/1908) (André Martinet) للسانيات بأنها "الدراسة العلمية والموضوعية للسان البشري"⁽²⁾، أو ما أشار إليه جون دي بوا (Jean Dubois) (2015/1920) بقوله إنها: "العلم الذي يدرس اللغة الإنسانية دراسة علمية، تقوم على الوصف ومعاينة الوقائع، بعيدا عن النزعة التعليمية والأحكام المعيارية"⁽³⁾.

إن منهج الجاحظ العلمي في دراسة اللغة، دفعه إلى أن يسلك مسلك قانون التدرج الذي بدأه باستنطاق لغة النص القرآني، باعتبارها المثل الأعلى للبيان العالي، ثم يتنزل من هذا الخطاب المثالي إلى أنواع الخطاب البشري الجاري على ألسنة المتكلمين في المجتمع، مستندا في دراسته إلى تأثيرات البيئة والظروف الاجتماعية في اختلاف الألسنة وتغيرها، وقد جعل من كتابه "البيان والتبيين" مصدرا لهذه الدراسة الاجتماعية للغة، إذ ركز على الحدث الكلامي، باعتباره أداء لا يرتكز على الجانب النظري فقط، بل على جانب الممارسة الفعلية للغة داخل المجتمع، "طبقا لقانون عام، وهو لكل مقام مقال، فيما خلا بعض الآراء النظرية التي تدور حول مفهوم اللغة، والكلام والبيان والبلاغة"⁽⁴⁾.

استنادا إلى ما سبق من توضيح لمنهج الجاحظ، ومنظوره اللساني للغة، خاصة الجانب الذي يشمل دراستها في الإطار الاجتماعي، فإن هذا البحث، يسعى إلى أن يرصد منهجية الجاحظ في تحليل الظواهر اللغوية واللهجية، ضمن إطار اللسانيات الاجتماعية، وقد طرحت من أجل ذلك، الإشكال الآتي:

- ماهي الأسس النظرية والتطبيقية التي تمظهرت فيها النظرية اللسانية الاجتماعية، في تفسير اللغة عند الجاحظ؟

في هذا السياق، سيعالج هذا البحث العناصر الآتية:

1- المنظور الاجتماعي للغة عند الجاحظ.

2- اللسانيات الاجتماعية ومبادئها التطبيقية في فكر الجاحظ.

هذا النوع من البحوث اللسانية هو ما صار يعرف بعد عصر الجاحظ - لاسيما في العصر الحديث - بمصطلح اللسانيات الاجتماعية ، وإذا كانت هذه الوظائف اللغوية المتنوعة التي تدور في إطار التواصل الاجتماعي قد توصل إليها الجاحظ منذ العصر العباسي ، فإننا نجد بعض اللسانيين المحدثين يتبنونها ويدعو إلى ضرورة توجيه الدراسات إليها ، وذلك حين عرف اللسانيات الاجتماعية ، وحدد وظيفتها بأنها : " تدرس اللغة باعتبارها تتحقق في المجتمع ، أي أنها تدرس الظاهرة اللغوية حين يكون هناك تفاعل لغوي ، أي لابد أن يكون هناك متكلم ومستمع أو متكلمون ومستمعون ، وإذن لابد أن يكون هناك موقف لغوي ، يحدث فيه الكلام ، وتتوزع فيه الأدوار والوظائف وفق قواعد متعارف عليها داخل المجتمع " (13). وإذا تمعنا في هذا القول ، فإننا نجده يلح على حقائق لسانية ، تدور حول العناصر المفعلة للحدث اللساني ، وكلها مستنبطة من تلك العلاقات التي تكون بين أفراد المجتمع ، باعتبارهم الأطراف الممثلة لظاهرة التواصل اللغوي ، الذي مجاله بالدرجة الأولى المحيط الاجتماعي.

لعل هذه النظرة للغة من قبل الجاحظ ، أيدها فيها عالم لغوي جاء بعده ، وهو ابن جني (ت 392هـ) ، حين عرف اللغة بقوله : "أما حدها فإنها أصوات ، يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" (14) ، فقولته : "القوم" لفظ دال على المجتمع اللغوي الذي يتداول أفراد لسانا ما ، ومن ثم فإن عدول ابن جني عن التعبير بلفظ فرد أو إنسان ، إلى التعبير بكلمة "قوم" ، ليس إلا لتبيان غرض واحد وهو اجتماعية اللغة ، كما أن كلمة قوم ، هي الكلمة التي كانت متداولة في عصره للدلالة على المجتمع ، يقول عبده الراجحي (1937-2010) "من الواضح أن كلمة القوم تعني المجتمع ، وبخاصة أن لفظة المجتمع ، لم تكن مستعملة في هذا المعنى الذي تعنيه الآن ، وإنما كان العرب يستعملون "القوم" ، للدلالة على المجتمع ، كما نفهمه في العصر الحديث" (15) .

هذا المفهوم الاجتماعي للغة لدى ابن جني ، نجد له سندا عند ابن خلدون حين عرف اللغة - وهو عالم من علماء القرن الثامن الهجري - مما يدل على أن اجتماعية اللغة يجمع عليها اللغويون باتفاق ، وفي هذا يقول ابن خلدون عن اللغة : "هي عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لساني ، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان ، وهي في كل أمة ، بحسب اصطلاحاتهم" (16) .

من خلال عبارة "وهي في كل أمة ، بحسب اصطلاحاتهم" ، ندرك أن ابن خلدون لم يهمل اجتماعية اللغة ، لا سيما أنه اعتمد على المنهج الاجتماعي في تفسير الظواهر اللغوية وغير اللغوية ، وهذا تحليل يشترك فيه اللسانيون القدامى مع اللسانيين المحدثين ، الذين يقررون أن اللغة لا تعدو أن تكون استجابة ضرورية للاتصال بين الناس ، ومن أجل هذا كان الجاحظ يدرس اللغة مرتبطة بالمجتمع ، وامتدت هذه الفكرة إلى اللسانيات الحديثة التي أدى تلاحمها مع علم الاجتماع ، إلى

الذي أشار فيه إلى ثنائية الفهم والإفهام ، بين السامع والقائل اللذين هما طرفا التواصل اللغوي الاجتماعي ، ومن أجلهما كانت اللغة ، ولتوضيح ذلك يقول الجاحظ : "البيان اسم جامع لكل شيء ، كشف قناع المعنى و هتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله ، كائنا ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان الدليل ، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع ، إنما هو الفهم والإفهام ، فبأي شيء بلغت الإفهام ووأضحت المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع" (9) . بهذا القول فإن الجاحظ يضع مصطلح البيان مقترنا بعملية التواصل ووسائلها المتنوعة ، وبأي أداة تواصلية يؤدي المتكلم (الباث) غرض مقصوده إلى السامع (المستقبل) ، يكون الإفهام وهو إيصال المعنى المراد إبلاغه.

بهذه النظرة العميقة أدرك الجاحظ أن الوظيفة الاجتماعية للغة هي في المقام الأول ، وهذه الوظيفة مرتبطة بالتواصل بين إفهام خاص بالباث وفهم مقصور على المتلقي ، "ومعنى هذا أن مصطلح البيان عند الجاحظ ، هو مصطلح جامع (Terme Collectif) ، يجمع كل طرق الاتصال ووسائل التبليغ في المجتمع" (10) ، ويزيد الجاحظ اجتماعية اللغة توضيحا ، وينقلها من معناها العام ، المتمثل في التواصل بين المخاطبين في المجتمع ، إلى معناها الخاص بالمتكلمين كالأفراد ، وذلك بتحليله لأصناف الدلالات الموجودة بين أبناء المجتمع اللغوي ، وتلك الدلالات نابعة من هذا المجتمع ، ومتواطؤ عليها من قبل أفراد ، لذا يقول الجاحظ مبينا ذلك : "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ ، خمسة أشياء ، لانتقص ولا تزيد ، أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال التي تسمى نصبة" (11) .

هذه الدلالات ، يمكن أن توصف بأنها مستويات للغة التخاطب ، الموجودة بالضرورة في المجتمع اللساني ، فاللفظ هو اللغة المنطوقة والإشارة هي لغة العلامات (السيمياء) ، والعقد لغة الحساب ، والخط هو اللغة المكتوبة ، والنصبة هي الدالة على لسان الحال دون لسان المقال ، ومن خلال هذه الدلالات يتواصل المتكلمون في المجتمع ، وبهذا يكون للغة وجهان ، وجه تواصلي وآخر اجتماعي ، وهما ضروريان لوجود المجتمعات الإنسانية ، وهذا الرأي من قبل الجاحظ ، دفع بعض اللسانيين يقولون "إن الإنسان لغة ، ويلزم عن هذه المقولة ، أن اللغة من كيان الإنسان ، فلا إنسانية بدون لغة" (12) . من خلال هذا القول ، نستطيع القول بأن وجود الإنسانية معلق بوجود اللغة ، بل لو قيل إن كائنا ما لا يستطيع أن يحيا إلا باللغة ، لكان هذا الإنسان .

من خلال هذا التحليل اللساني العميق الذي بلغه فكر الجاحظ ، خاصة في المباحث التي تتعلق بماهية اللغة ووظائفها ، فإنه يكون قد أشار إلى وجوب الاهتمام بدراسة اللغة في إطارها الاجتماعي ، وكأنه يحث كل عالم في اللغة ، أن لا يغفل هذا الفرع من الدراسة اللغوية الذي يتتبع تطور المظاهر اللسانية خلال التواصل اللغوي للمجتمع اللساني الواحد ، ولاريب أن

أ- الحدث الكلامي في المجتمع (l'évènement Verbal)

إن كثرة اختلاف الجاحظ إلى العلماء، واختلاطه بطبقات المجتمع العباسي بمختلف شرائحه، وإطلاعه على الميادين الثقافية والدينية، مع طول الخبرة بشؤون عصره، كون لديه نظرة علمية حول لغة الفئات الاجتماعية المتعددة، بدليل أن له كتباً ورسائل تصور أحوال هذه الفئات، وأساليبهم في الكلام منها كتاب "البخلاء"، كتاب "القحطانية والعدنانية"، كتاب "المعلمين"، كتاب "الجواري"، كتاب "العرب والموالي"... إلخ، وهذا العدد من المؤلفات الذي هو على سبيل التمثيل لا الحصر، لبرهان قوي على أن الجاحظ وعى العلاقة بين هذه الطبقات الاجتماعية وبنيتها اللغوية، إذ كان يحكي كلامهم كما صدر منهم، حتى ولو كان فيه خطأ أو لحن، وهو ما يصطلح عليه في اللسانيات، بالحدث الكلامي الذي يعني باللغة الإنجليزية (Speech Event)، وليس هذا جهلاً منه بمواطن الصواب والخطأ في الكلام، وإنما قصداً منه في إيراد الكلام، وفق ما تقتضيه القواعد التي تنادي بها اللسانيات الاجتماعية، التي ترى رواية العبارة وفق ما صدر عن المتكلم دون تعديل أو تصرف، وفي ذلك يقول محاكياً ما قاله شيخه إبراهيم بن سيار النظام (160هـ و185هـ)، حين خاطب كلباً هجم عليه: "إن كنت سبع، فاذهب مع السباع، وعليك بالبراري والغياض، وإن كنت بهيمة فاسكت عنا سكوت البهائم" (21).

نلاحظ أن الجاحظ أورد اللحن في كلمة "سبع" كما هو دون إعرابه، إذ أنه لا يجوز له التصرف فيه بتعديله بالتنوين على أنه خبر كان منصوب، وذلك حتى يسجل الظاهرة اللغوية كما وردت في الواقع الاجتماعي، لذا يخاطب القارئ قائلاً: حين يروي هذه العبارة: "ولاتنكر علي قولتي وحكايتي عنه، بقول ملحون من قولتي: "وإن كنت سبع، ولم أقل سبعا" (22).

من خلال هذه العبارة التي تبين طريقة الجاحظ الخاصة في حكاية كلام غيره، يظهر أن الجاحظ يتفق مع منهج اللسانيات الاجتماعية الذي يرى ضرورة المحافظة على مناطق به المتكلم، ويعتني بالمتكلم واللغة التي يستعملها، والمتكلم إليه، وزمن التكلم، وما ينتهي إليه الكلام، ومن هنا يتقيد الجاحظ بأمانة نقل العبارة، وفق عادة المتكلم اللغوية في إنشائه وتركيبه للكلام.

ب- التغير اللغوي الاجتماعي

تنبه الجاحظ من خلال تحليله للاختلافات اللهجية الطارئة على لسان مجتمعه، إلى حقيقة تؤمن بها اللسانيات الاجتماعية الحديثة ويراعونها علماءها، وهي التطور اللغوي (Développement du langage) الذي تتحكم فيه دواع تاريخية تعاقبية، لها علاقة بالمجتمع وظروفه الداخلية، مما يؤدي إلى ظهور تعبيرات تمثل الواقع الجديد، وتسائر مرونته اللغوية، "ذلك لأن اللغة في تراكمها التاريخي، في تطوراتها المتعاقبة، في ميلها لأسلوب معين للتعبير عن الجماليات اللفظية، إنما تعكس واقع ذلك المجتمع وخصائصه الذاتية" (23)،

توليد علم يعرف بعلم الاجتماع اللغوي، الذي يحاول الكشف عن العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية، وبين أثر تلك الحياة الاجتماعية في الظواهر اللغوية المختلفة" (17)، ومن هذا القول ندرك أن دراسته اللغويين القدامى للغة لم تكن إلا وهي مقترنة بالبيئة التي أنتجتها، حيث إنهم أدركوا أن الدراسة النظرية للغة ناقصة من حيث النتائج، إن لم تكن معززة بالجانب التطبيقي والميداني.

إن الجاحظ على بعد العهد بينه وبين نظرية اللغة الحديثة، نجده قد قال بهذه الخاصية اللغوية التي أجمع عليها كل الباحثين اللسانيين، ومن أمثلة ذلك ما قاله "مالينوفسكي" (1942/1884) (Malinowski) حول وظيفة اللغة: "إن وظيفة اللغة ليست مجرد وسيلة للتألف أو التواصل، بل وظيفة اللغة هي أنها حلقة في سلسلة النشاط الإنساني المنتظم، هي جزء من السلوك الإنساني، إنها ضرب من عمل، وليست أداة عاكسة للفكر، واستعمال اللغة على هذه الصورة ليس قاصراً على الجماعات البدائية، بل إنه ليلاحظ في أرقى الجماعات تحدثاً" (18)، وبما أن اللغة حاضرة في كل مجتمع لسانی، فلا بد لها من مظاهر تطبيقية إجرائية، تتمظهر في العلاقة التواصلية التي يظهر فيها الاستعمال اللغوي، وهذا الاستعمال هو موضوع اللسانيات الاجتماعية، كما ذهب إلى ذلك "فيشمان" (2015/1926) (Fish man) الذي يعرفها بأنها: "علم يبحث في التفاعل بين جانبي السلوك الإنساني، استعمال اللغة والتنظيم الاجتماعي للسلوك" (19)، وهذا الرأي يضع اللغة مع اللسانيات الاجتماعية في مجال واحد، حيث يمكن القول: إن اللغة سلوك اجتماعي، وعلم اللغة الاجتماعي أو اللسانيات الاجتماعية، ما هي إلا معيار علمي يدرس به هذا السلوك.

2- اللسانيات الاجتماعية وتطبيقاتها في فكر الجاحظ

حين نريد أن نلمس حقيقة اللسانيات الاجتماعية من الناحية التطبيقية للغة، نجدها تبحث في دراسة الأنماط اللغوية المنتشرة، والبارزة في المجتمع اللساني الواحد، كما نلمسها في تلك القوانين الاجتماعية التي تحكمها، فهي "تحاول تحديد الهيمنة اللغوية لنمط لغوي على آخر، كما تحاول اكتشاف القوانين أو المعايير الاجتماعية التي تحدد المواقف اللسانية، ضمن الجماعة اللغوية" (20)، وتلك القوانين الاجتماعية تمثل الضوابط التي يستعين بها عالم اللغة في استقرار الثوابت والمتغيرات داخل اللغة ووفق متطلبات الفئة الاجتماعية.

لأجل هذا، تدخل القوانين والمعايير الاجتماعية ضمن المؤثرات التي تتأثر بها اللغة في جانبها التطبيقي، أما دراسة اللغة دون هذه المؤثرات، فيمكن تصنيفه في الجانب النظري، فالأول يوجب على الباحث الاحتكاك بالعينة الاجتماعية المراد دراسة مادتها، أما الثاني فهو دراسة المادة اللغوية دراسة وصفية، وأمام هذه الحقيقة اللسانية، فإن الجاحظ لم يكن بمعزل عن علاقة اللغة بمظهرها التطبيقي في المجتمع، وهذا المظهر التطبيقي يمكن إيجازه في العناصر الآتية:

النتيجة، بالاحتكام إلى البيئة والمكان الجغرافي الذي لم تختلط ألسنة أفرادها بكنة الأعاجم، وهذا المكان المساعد على جودة لغة الأعراب، هو بيئة شبه الجزيرة العربية، وقد علل ذلك قائلا: "لأن تلك اللغة إنما انقادت واستوت، واطردت وتكاملت، بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة" (29)، بعد ذلك ينفي الجاحظ عن لغة هذه الطبقة، السلبات القادحة في جماليات التعبير لديهم، ويثبت الإيجابيات الدالة على علو بيانهم، وفي ذلك يقول منزها لغتهم عن كل نقص: "ولم أجد في خطب السلف الطيب، والأعراب الأقحاح، ألفاظا مسخوطة، ولا معاني مدخولة، ولا طبعاً رديئاً، ولا قولا مستكرها، وأكثر ما نجد ذلك في خطب المولدين، وفي خطب البلديين المتكلفين، ومن أهل الصنعة المتأدين، سواء كان منهم على جهة الارتجال والاقتضاب، أو من نتاج التعبير والتفكير" (30)، ومن هذا القول ندرك أن الجاحظ لا يعدل بكلام الأعراب ومن شابههم في الأساليب أي طبقة أخرى، أما الخصائص التي ترفع لغتهم إلى رتبة أهل الفصاحة والبيان، وإلى رتبة أعلى الطبقات اللغوية، فيقول: "وأنا أقول، ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا أنق، ولا أذ في الأسماع، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة، ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويما للسان، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء" (31)، ولعل في هذا القول ما يؤكد أن لغة البدو من أهل شبه الجزيرة العربية، كانت في عصر الجاحظ هي النموذج الذي يمثل اللغة الرفيعة والبيان العالي، الذي يجب أن يحتذى من قبل المتأدين والمنشئين للكلام المنظوم أو المنثور، ولأجل هذا كانوا يحبون سماعه، ويسارعون إلى مشافهة أصحابه، وربما شد له علماء اللغة الرحال ابتغاء جمعه وتدوينه.

ج- لغة الطبقة العامة

يثبت الجاحظ لغة هذه الطبقة، قاصدا بها طبقة أرباب القلم وأصحاب البيان، أو ما يسمون عادة بالطبقة العامة، وهم عنده طبقة مجزأة إلى طبقات عديدة ومتنوعة، هي:

- طبقة الشعراء والكتاب وطبقة الفقهاء والخطباء ومن استن بسننهم، فهؤلاء لهم لغتهم، المتفردة بخصائص مميزة، وفي هذا يقول موضعا لغة هذه الطبقة: "ولكل قوم ألفاظ، حظيت عندهم، وكذلك كل بليغ في الأرض، وصاحب كلام منثور، وكل شاعر في الأرض، وصاحب كلام موزون، فلا بد أن يكون قد لهج وألف ألفاظا بأعيانها، ليد يراها في كلامه" (32)، ومن هنا يتضح أن الجاحظ كان خبيراً بأسرار إنشاء الكلام، وأساليب البلغاء في بناء أساليبهم، وأن لكل واحد منهم طرائق معينة في حيك الكلام، ومن ثم فإنه تمكن من إدراك هذه الخبايا الدقيقة، في معرفة صيغ الفصحاء في تشكيل الجمل واختيار الألفاظ، فلا شك أن له باعاً طويلاً، ودارية بكلام الفصحاء، كل ذلك لم يكن ليحيط به علما، لولا كثرة احتكاكه بمختلف الشرائح الاجتماعية التي كانت سائدة في بيئته وعصره.

ومن بين أسباب تغير وتطور لغة المجتمع، التعبير عن حاجاته، يقول الجاحظ "كثر كلام الناس، واختلفت صور ألفاظهم، ومخارج كلامهم، ومقادير أصواتهم في الدين والشدة، وفي المد والقطع، كثرة حاجاتهم، وكثرة حاجاتهم، كثرت خواطرهم وتصاريق ألفاظهم، واتسعت على قدر اتساع معرفتهم" (24)، إن هذا الرأي يفتح مجالا لتنظير لساني يعرض لنا فيه الجاحظ نماذج تطبيقية، من التغير اللغوي الطارئ على استعمالات اللغة في المجتمع العباسي، ذلك المجتمع الذي استحدث فيه الناس ألفاظا، ذات دلالات مناسبة للواقع الاجتماعي آنذاك، وفي هذا السياق يقول الجاحظ في إحدى قصص البخلاء: "إذا مد أحدكم يده إلى الماء فاستسقى، وقد أتيتم ببهطة (دقيق يطبخ بالسمن واللبن) أو بجوزابة (طعام من الأرز واللحم) ... قال: وأتانا بأرزة، فنثروا عليها لبكة (قطعة من ثريد) ... " (25)، يتبين من هذا النص، أن التغير اللغوي من الخصائص الضرورية للغة، لا يمكن إغفاله، لأن "اللغة ليست ساكنة بحال من الأحوال، بالرغم من أن تقدمها يبدو بطيئاً في بعض الأحيان، فالأصوات والتراكيب وصيغ الكلمات ومعانيها، معرضة كلها للتغيير والتطور" (26).

ج- الطبقات اللغوية (الخاصة والعامة)

تلتقي أبحاث الجاحظ في هذا الباب، ببحوث علماء اللسانيات الاجتماعية ودرساتهم لطبقات المجتمع (Les classes sociales)، ويقصدون بذلك طبقات الناس من حيث استعمال اللغة الواحدة، جودة ورواءة، وقوة وضعف، وبما أن الجاحظ فقه هذه الحقيقة، فإنه يؤكد هذا قائلا: "وكلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم طبقات" (27)، وهذه الرؤية العميقة للغة - من قبل الجاحظ - تحتاج إلى مزيد من البسط والتفصيل، ومن أجل توضيح فكرته هذه، أنزلها إلى الميدان التطبيقي، فرصد لنا أربع طبقات للغة ومستعملاتها، وهي:

أ- لغة الكتاب العزيز

عربية القرآن، هي أعلى مستويات البيان الذي شعر العرب قديماً أنه الغاية التي يتنافسون من أجل الوصول إليها، فلما سمعوا القرآن وجدوا أنه يمثل هذه الغاية التي يحاولون بلوغها، وفي هذا يقول الجاحظ عن القرآن ولغته الإعجازية: "قد خالف جميع الكلام الموزون والمنثور، وهو منثور غير مقفى، على مخارج الأشعار والأسجاع، وكيف صار نظمه من أعظم البرهان، وتأليفه من أكبر الحجج" (28)، وبهذا القول، شرع الجاحظ يصنف مراتب الكلام، مبتدئاً من أعلى درجة النظم المعجز، إلى ما هو دونه من مستويات الكلام.

ب- لغة طبقة الأعراب

يعتبر الجاحظ بنظرته السوسيولوجية للغة الأعراب، أن أهلها أحسن الناس إجادة للاستعمال اللغوي، بمختلف مستوياته الصوتية، والدلالية والتركيبية، وإنما صار الجاحظ إلى هذه

د لغة طبقة المعتزلة

يعد الجاحظ لغتهم متميزة، لكونها مرتبطة بأفكار عقدية وكلامية، ولا يضع لغتهم في مستوى واحد، بل يعتبر لغتهم ذات مستويين، مستوى يتعلق بصفوة رجالات المعتزلة وعلمائهم، كإبراهيم بن سيار النظام شيخ الجاحظ وغيره، ومستوى خاص بعوام هذه الفرقة، حيث يصنف لغة الفريقين فوق لغة سائرعوام المجتمع، وفي نظر الجاحظ أنهم لا يتكلمون بأي كلام، بل كلامهم في غاية الفصاحة من حيث جودة التركيب، وعمق المعنى، لأن لهم ذوقا لغويا، وحسا أدبيا يميزون به بين جيد الكلام ورديئه، وفي هذا يقول: "...وأشكالا من هذا الكلام، وإن كان غريبا مرفوضا من أهل ملتنا ودعوتنا، وكذلك هو عند عوامنا وجمهورنا، ولا يستعمله إلا الخواص والمتكلمون"⁽³³⁾، وفي هذا تحليل من قبل الجاحظ في حكمه على لغة هذه الفرقة، وإصداره في حقها هذه الأحكام، إذ بين أن لهم استعمالا لغوية خالصة لهم من دون الناس، بسبب أن لهم معرفة واسعة بعلم الكلام، وهذا العلم الذي مكنهم من التفتن في صياغة الأساليب، وتطعيمها بأرائهم الفكرية، ولعل هذه الأحكام ليس اعتبارية بعيدة عن كل تحليل، بل هي مبنية على علم راسخ بكل ما يتعلق بثقافة هذه الطبقة، لا سيما أن الجاحظ كان ينتمي إليها، وكانت له فرقة معتزلية عرفت بالجاحظية.

ه - لغة طبقة العوام

لغة طبقة العوام عند الجاحظ موجودة، لكنه لا يعتبرها جديرة بالذكر، لكونه لا يضع اعتبارا، إلا لأربعة أنواع من عوام الأجناس البشرية التي تستحق ألسنتها الدراسة، وهي العرب والفرس والهند والروم، وفي الوقت نفسه يضع كل هذه الطبقات، دون طبقة عوام المعتزلة قائلا: "وإذا سمعتموني أذكر العوام، فإني لست أعني الفلاحين والحشوة والصناع والباعث، ولست أعني الأكراد في الجبال، وسكان الجزائر في البحار، ولست أعني من الأمم البيروا والطلبان، ومثل قوقان وجيلان، ومثل الزنج وأشباه الزنج، وإنما الأمم المذكورة مع جميع الناس أربع، العرب وفرنس والهند والروم، والباقيون همج وأشباه الهمج، وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا وأدبنا وأخلاقنا، فالطبقة التي فوق الأمم، ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا، على أن الخاصة تتفاضل في طبقات أيضا"⁽³⁴⁾، وعند إمعان الفكر في هذا القول، يتبين أن للجاحظ مفاهيم ومصطلحات ينفرد بها عن سائر علماء اللغة، فمصطلح العوام عنده له دلالة خاصة، إذ لا يقصد به جميع فئات الناس، كما هو سائد عند غيره، بل هو مقصور على فئة معينة، هي فئة عوام المعتزلة وبعض الطوائف الأخرى، ولعل السبب الذي جعل الجاحظ يصدر هذا الحكم، هو أنه ينظر إلى طبقات المجتمع بمنظور لساني، حيث يكون الاعتبار للطبقة التي لها حظ من البيان الرفيع أو من اللغة الراقية، والتي يكون كلامها جديرا بالاعتناء وحقيقا بالدراسة والتأمل، أما بقية الفئات الاجتماعية الأخرى

، فليست حرة بأن يهتم الجاحظ بها، لأن كلامها لا يملك من الخصائص الأسلوبية، مايؤهلها لأن يكون محط نظره، ومن ثم فإنه يضرب عنه صفحا ولا يقيم له وزنا.

و - لغة طبقة الفرق والطوائف

أولى الجاحظ اهتماما في دراسته للغة السائدة في المجتمع العباسي الذي ظهرت فيه فرق اجتماعية، شكلت لنفسها طبقات متباينة، ومن ثم تنوعت أساليبها في التعبير عن حاجاتها، فأفرزت لغة خاصة بها، ومن ذلك طائفة البخلاء الذين وصفهم بالمسجدين، وفي ذلك يقول عنهم: "قال أصحابنا من المسجدين: اجتمع ناس في المسجد، من أصحاب الجمع والمنع..."⁽³⁵⁾ ومن ذلك أيضا طائفة اللصوص والسطار الذين أفرد لهم كتابا خاصا، يبدو أنه ضاع مع صروف الزمن ونكبات الدهر، وقد أشار إليه بقوله في مقدمة كتاب "البخلاء": "ذكرت -حفظك الله- أنك قرأت كتابي في تصنيف حيل لصوص النهار، وتفصيل حيل سراق الليل، وأنتك سددت به كل خلل وحصنت به كل عورة..."⁽³⁶⁾، واهتمام الجاحظ بلغة هذه الطبقة دون غيرها، يدل على أنه يخالطهم ويجلس إليهم، بدليل أنه أورد عبارة "أصحابنا من المسجدين"، أما التلة الأخرى من المجتمع والتي عرفت عنده بالسطار واللصوص، فإنه كان يتلقف أخبارهم من الرواة، كما أن حرص الجاحظ على إيراد أحاديث طبقة البخلاء، إنما ينطلق من منهجه اللغوي الذي يتتبع كل طبقة اجتماعية، لها لغة حرة بها أن تكون موضع اهتمام من قبل الباحث اللغوي، إضافة إلى أن انتقال الجاحظ من لغة طبقة إلى لغة طبقة أخرى، يدل على وقوفه على حقيقة لسانية، هي انتقال دلالات اللغة من حال إلى حال، وفي هذا دليل على أن اللغة عنده يعترئها التغير من طبقة إلى أخرى، وهذا التطور الدلالي استجابة لخدمة مصالح تلك الفئة الاجتماعية التي تمارسها، وباعتبار اللغة أيضا "أداة اتصال تتكيف مع حاجات أولئك الذين يستعملونها"⁽³⁷⁾، وهذه حقيقة لسانية أخرى، وهي أن اللغة في عمومها تتميز بالحركة وعدم الاستقرار، وفي الوقت نفسه تباعد عن السكون والثبوت الدائم.

ومن أمثلة هذا النوع من الاستعمال اللغوي، أن الجاحظ سأل بائع شراب عن وصف معركة، فأخبره مستعملا ألفاظا من صميم مهنته، قال: "لقيناهم في مقدار صحن بيت الشراب، فما كان يقدر ما يصفى الرجل، دنا حتى تركناهم في أضيق من رطلية (وعاء يسع رطلا من الشراب)، فلورميت تقاحة ما وقعت إلا على أنف سكران"⁽³⁸⁾، ومن هذه القصص التي يستدل بها الجاحظ، يمكن القول إن كل طبقة تستعمل لغتها الخاصة وفق ما اعتادت عليه من عادات أو مهن اجتماعية، واعتيادها على ألفاظ وتراكيب مخصوصة، تنم على أن اللغة مرتبطة بالمجتمع، وأن هذا الارتباط يقترب في الغالب بحاجات الفئة الاجتماعية، وأن الحاجة الاجتماعية عامل من عوامل التطور اللغوي، لا سيما الدلالي منه، سواء أكانت دلالة لألفاظ رفيعة،

اللهجات ماهي إلا مظهر من المظاهر اللسانية التي تتجسد فيه أي لغة من اللغات الإنسانية، لاسيما أن اللسانيات المعاصرة أضحت تلح على التوجه بالبحوث، إلى اللهجات الموجودة في مجتمعاتها، باعتبارها من مكونات التركيبة الاجتماعية لذلك المجتمع.

- لهجة الأعاجم

هي أول لهجة اجتماعية، لاحظها الجاحظ بوضوح في ذلك المجتمع الذي اختلط فيه العرب الخالص مع الأعاجم بشكل كبير، وهذا الاختلاط العربي بالجنس الأعجمي، ولد لهجة مزدوجة من اللغة الفصحى والمفردات الأعجمية، ومن ذلك مارواه الجاحظ عن قصص أحد تجار الدواب مع الحجاج بن يوسف الذي قال له " أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان، قال التاجر: وشركتنا في هوازها، وشريكنا من مدينتها، وكما تجيئ نكون، فقال له الحجاج: ما تقول: ويليك، فقال له بعض من كان اعتاد سماع الخطأ، وكلام الأعاجم بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك، يقول: "شركاؤنا بالأهواز والمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب، فنحن نبيعها على وجهها"⁽⁴²⁾.

- لهجة المولدين

انتبه الجاحظ إلى أن المولدين في عصره، كانت لهم لهجة ينمازون بها في المجتمع، متأثرين في ذلك بالأعاجم، لاسيما على المستوى الصوتي (الفونيتيكي)، وربما كان من هؤلاء المولدين بعض الشعراء الذين لهم شعر جيد المعاني رقيق الألفاظ، أحرز ثناء كبيرا من اللغويين، وكان الجاحظ أحد أولئك الذين أنشأوا عليه، ومع ذلك تسربت إلى شعرهم لكنة الفرس والأحباش، فصاروا ينطقون حروف العربية بغير مخارجها، دون مراعاة المخارج التي اعتادتها العرب بسليقتها، ومن ذلك مارواه الجاحظ: " أن الشاعر سحيم عبد بني الحسحاس الذي كان تؤثر فيه الحبشية، أنشد عمر بن الخطاب قائلا:

مُخْمِرَةٌ وَجَعَتْ إِنْ تَجَهَّرَتْ غَارِيًا كَفَى السَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لَمَرَّةً نَاهِيًا
فقال عمر: لو قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك، فقال ماسعرت"⁽⁴³⁾، فهذا الشاعر على علو كعبه في الصياغة اللغوية، إلا أنه أخفق في إخراج بعض الحروف من مخارجها، وذلك أنه نطق الشين سينا، وقد ساق الجاحظ عن كلام المولدين نماذج كثيرة، في كتاب "البيان والتبيين"، حيث عرف كيف يحللها بمراعاة أصل المتكلم وسلالته البشرية، وهذا جانب من جوانب سوسيولوجية اللغة في الدراسات الحديثة التي تأخذ بعين الاعتبار حالة المتكلم، كمعطى اجتماعي من حيث أصله السلافي ووظيفته الاجتماعية، ومستواه المعيشي الثقلي، وربط هذه الحالة بنوع اللغة التي يستعملها، انطلاقا من مجموع القواعد التي تضبطها، لأنها دائما تحدد في زمان ومكان، وبيئة اجتماعية معينة"⁽⁴⁴⁾، ومن هنا نعلم أن هناك معطيات، تؤثر كلها في التكوين اللغوي لدى الشخص، وتلك المعطيات تتمثل في استعدادات وراثية، تعود إلى سلالته البشرية، أو عمل أو

متعلقة بلغة أهل البيان، أم دلالة لها صلة بألفاظ وضيعة، ملازمة للغة السوق والعوام.

3 - اللهجات وعلاقتها بلغة المجتمع

لغة المجتمع الرسمية في عصر ومجتمع الجاحظ هي العربية الفصحى، وهي المرجع الذي يؤول إليه الباحث اللغوي عند الاحتكام إلى الدليل، وأما ما اصطلاح عليه في سوسيولوجية اللغة، باللغة الفصحى (Langue Standard)، فإن الباحث يجد أن الجاحظ عن طريق الاستقراء الاجتماعي للغة، استنتج أن هذه اللغة، وإن كانت هي النموذج الذي يحتذى به في الاستعمال، قد يعثر بها بعض الدخيل اللغوي واللهجي من خارجها، ولتوضيح هذا الجانب يصرح الجاحظ موضحا هذه الحقيقة: "إن أهل الأمصار يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب، ولذلك تجد الاختلاف، في ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر"⁽³⁹⁾.

من خلال هذا القول، يمكن القول إن الجاحظ يدرك أن الاختلاف في الألفاظ يولد لهجات، لذا يدرسها دراسة ميدانية ويتتبع الألفاظ المتداولة بين المتكلمين، فيلاحظ أن هناك تباينا بينهما، مما يضطره إلى تقسيم اللهجات إلى قسمين، لهجات إقليمية ولهجات اجتماعية.

أ - اللهجات الإقليمية: (Dialectes Régionaux)

أقام الجاحظ حولها دراسة شاملة عامة، حيث رصد اللهجات العربية في إقليمها الكبير، وهو شبه الجزيرة العربية، وأشار إلى حيزها الجغرافي الذي تنتشر فيه، موضحا بعض سماتها الصوتية أو الجانب الفونيتيكي منها (Phonétique)، ومن أقواله في ذلك، ما أورده عن بعض اللهجات المحلية قائلا: "ويقال دجاجة بيوض في دجاج بيض وبيض، بإسكان موضع العين من الفعل، من لغة سفلى مضر، وضم موضع العين من نظيره من الفعل مع الفاء، من لغة أهل الحجاز"⁽⁴⁰⁾، وبهذا فالجاحظ يدرك أن التغير اللهجي من الناحية الصوتية، لا سيما النطقية منه، يخضع أيضا في معظم الأحيان للبيئة الطبيعية وملابساتها الجغرافية والاجتماعية.

ب - اللهجات الاجتماعية: (Dialectes Sociaux)

هذا النوع من اللهجات هو الذي استحوذ على معظم الدراسات السوسيولوجية للغة لدى الجاحظ، فقد درس لهجة الأعاجم الناطقين بالعربية، ولهجة المولدين، ولهجات اجتماعية أخرى، مما يؤكد نظرة الجاحظ العميقة للغة، إذ يتناص موقفه هذا مع اللسانيات الاجتماعية، باعتبارها ذلك " العلم الذي يتخذ من اللغة موضوعا له، واللغة التي يدرسها إنما هي تتحقق في أشكال لغات كثيرة، ولهجات متعددة، وصور مختلفة من صور الكلام الإنساني"⁽⁴¹⁾، هذا القول ينص على أن اللغة لا يمكن أن تدرس وتحلل إلا في مناخها الذي تكونت وتطورت فيه، كما أنه ينص على أن من رام تحليل المسائل اللغوية في أي لغة، وعبر مستوياتها المختلفة، فيجب عليه مراعاة لهجات تلك اللغة، لأن

كلمات دخيلة، أو تغيرات صوتية، ومن ثم فاللغة لا تبقى على حالها، إذ يعثرها التطور الصوتي الذي ينتج عنه تطور دلالي.

5- اللغة لها ارتباط وثيق باللهجات، مما دفع الجاحظ إلى الاهتمام باللهجات داخل المجتمع، وتلك سمتة يتناص فيها التفكير اللساني لدى الجاحظ مع اللسانيات الاجتماعية الحديثة، التي تهتم باللهجات وعلاقتها مع اللغة الأصلية، لأنه ربما صارت هذه اللهجات بعد مدد طويلة من الزمن لغات رسمية، كما حدث للغات الأوروبية التي انبثقت من اللاتينية، ثم انفصلت عنها لعوامل عديدة، في مقدمتها العوامل الاجتماعية.

6- الدراسة السوسiolinguistic للغة، ميدان من ميادين البحث في إطار اللسانيات الاجتماعية، وأن أي دراسة لسانية للغة تقصي العامل الاجتماعي، فإنها دراسة لا تسلم من نقائص، لأنها لم تراع عاملاً أساسياً يعتبر أحد مقومات اللغة، ألا وهو العامل الاجتماعي، وهذا العامل عرفه الجاحظ ومارسه في بحوثه اللسانية منذ أمد بعيد.

7- البحث اللساني إذا ارتبط بتحليل المؤثرات الاجتماعية في اللغة، فلا ريب أنه يكون بحثاً ذا نتائج ملموسة، تقترب كثيراً من الدقة الموضوعية، وسبب ذلك أنه احتكم إلى الدراسة الميدانية المدعمة بأمثلة وشواهد لغوية مستمدة من الواقع اللغوي الاجتماعي، لذا اتسمت دراسة الجاحظ اللغوية بالطرح العلمي المنطقي والموضوعي.

8- يمكن القول إن بحث الجاحظ في موضوع اللهجات المحلية في عصره، وتحليله للتفاوت اللغوي بين طبقات المجتمع، يعتبر من البحوث التي تطلع الباحث اللساني على التباين اللغوي واللهجي، في فترة محددة من العصر العباسي، ومن ثم يمكن استثماره في الدراسة التاريخية التي تبحث في دراسة الظواهر اللغوية خلال أزمنة تاريخية متعاقبة، وبذلك يستطيع أي باحث الوقوف على أهم التطورات الطارئة على اللغة في عصر الجاحظ، ويوازن بينها وبين غيرها من التطورات التي شهدتها اللغة في العصور اللاحقة.

الهوامش

1- القاضي عبد الجبار، فرق وطبقات المعتزلة، تحقيق علي سامي النشار وعصام الدين محمد علي، دار المطبوعات الجامعية، مصر، دط، 1972، ص74.

2 - André Martinet, Elément de linguistique générale 5 ème édition Mehedi Tizi Ouzou, 2013, p31

3- معجم اللسانيات، نقلا عن مبادئ اللسانيات، لأحمد نحوند قدور، دار الفكر، دمشق، دط، 1999، ص11.

4- حلمي خليل، في اللسانيات التطبيقية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 2016، ص156.

5- F. De Saussure, cours de linguistique générale, cd, T. maire, Payot, 1995, p 25

6- André Martinet, Elément de linguistique générale, p34/44

7- فندريس، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مطبعة نخبة البيان العربي، القاهرة، دط، 1950، ص35، دت، ص16.

مهنة تعكس حالته الاجتماعية، ومهما تنوعت العوامل المؤثرة في تكوين لهجة أو أخرى، فإن الجاحظ يرد سبب ظهور هذه اللهجات على أسنة الأعاجم والمولدين، إلى أن هناك تداخلا لغويا بين اللغة الأم واللغة الثانية، مما يسبب تغيرا صوتيا، وفي ذلك يقول: "واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد، أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتهما"⁽⁴⁵⁾.

هذه الأحكام اللسانية التي توصل إليها الجاحظ، يمكن أن نعتبرها أحكاما بناها على دراسة سوسiolinguistic للاستعمال اللغوي، ورصد التغيرات اللهجية المتعددة، وربطها بأجناسها البشرية، ومن ثم فإنه نظر إلى اللهجات نظرة علمية، إذ هي عنده "نمط من الاستخدام اللغوي داخل اللغة الواحدة، وتشترك معها في جملة من الخصائص العامة"⁽⁴⁶⁾.

صفوة القول، إن الجاحظ أقام دراسته السوسiolinguistic للغة على فكرة، مفادها أن التحليل اللغوي لا يكون حكرا على لغة ما، بل يتعداها إلى لغات ولهجات أخرى، وإذا كانت دراسته في كتاب "البيان والتبيين" أو غيره من الكتب، لم يرد فيها المصطلحات الحديثة المتداولة في الدراسات السوسiolinguistic الحديثة للغة، فإن ذلك يعود إلى أنه كان هو وأمثاله من علماء التراث، يدركون أن أي دراسة للغة مهما كان منهجها وغايتها، فإنه لا ينبغي لها أن تهمل الجانب السوسiolinguistic (الاجتماعي) للغة، وهذا المنهج يقترب مما ذهب إليه بعض اللسانيين في عصرنا، إذ يرى "أنه يمكن الاكتفاء بالمصطلح العام المشهور، علم اللغة أو علم اللغة العام دون نعتة بالاجتماعي، على أن يتولى مسؤولية النظرة الاجتماعية للغة في كل مرحلة"⁽⁴⁷⁾.

خاتمة

من خلال ما ورد في هذا البحث، يمكن استنتاج النتائج الآتية:

1- التفكير اللساني لدى الجاحظ، قد حمل منذ وقت مبكر الأصول الأولى التي تتفق غالبا مع ما يسمى حديثا سوسiolinguistic للغة، حيث إن ما أقره الجاحظ في كتاب "البيان والتبيين" وسائر مؤلفاته، قد أشار إليه علم اللغة الاجتماعي الحديث.

2- أفكار الجاحظ اللسانية في كتاب "البيان والتبيين"، تحمل حقائق لسانية تكني عن مصطلحات تنتمي إلى الدراسة السوسiolinguistic الحديثة للغة، مما يجعل أي باحث يذهب إلى أن الجاحظ لم يفتقر إلى الفكرة العميقة، بقدر ما كان يفتقر إلى المصطلح.

3- يتبين من خلال دراسة الجاحظ السوسiolinguistic للغة، أن اللغة تؤثر على الفرد، حيث يرى الحياة الاجتماعية من زاوية هذه اللغة، كما أن اللغة تؤثر في المجتمع، والمجتمع بدوره يؤثر فيها، بدليل أن ألفاظا وتراكيب طرأ عليها التغيير في الجانب الصوتي والتركيبي لعوامل اجتماعية، مما يفسر ظهور عبارات قديمة وأخرى جديدة.

4- الضرورة الاجتماعية عند الجاحظ تفرض على اللغة

- 8- محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة، المجالات والاتجاهات، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، دط.
- 9- الجاحظ، البيان والتبيين، مطبعة التأليف، مصر، ط 3، 1968، ج 1، 76.
- 10- حلمي خليل، في اللسانيات التطبيقية، ص 159
- 11- الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ص 76.
- 12- محمد عبد العزيز الجبالي، تأملات في اللغو واللغة دار الكتاب العربي، ليبيا، دط، 1980، ص 110.
- 13- رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، مصر، دط، 1997، ص 125.
- 14- ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب، القاهرة، ط 1، 1965، ج 33.
- 15- عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة العربية، بيروت، دط، 1979، ص 71.
- 16- ابن خلدون، المقدمة، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، دط، دت، ص 546.
- 17- عبد السلام المسدي، اللسانيات من خلال النصوص، الدار التونسية، ط 1، 1984، ص 172.
- 18- محمود السعران، اللغة والمجتمع، دار المعارف، مصر، دط، 1992، ص 17/16.
- 19- Joshua Aaron Fishman . the Sociology of language .IN. Society Rowley New buy House. 1972. p1.
- 20- علي صبري الفرغلي، الهوية العربية وازدواجية اللغة في عصر المعلومات، مجلة الفكر العربي، العدد 96، معهد الإنماء العربي، دط، بيروت، 1999، ص 157.
- 21- الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة نابي الحلبي، مصر، ط 2، ج 1، ص 283.
- 22- المصدر نفسه، ص 283.
- 23- حامد ربيع، حول تحليل العلاقة الاتصالية بين المفهوم القومي للوجود السياسي والتطور الاجتماعي نحو التماسك العقائدي، مجلة المستقبل العربي، عدد 59، يناير، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1984، ص 91.
- 24- الجاحظ، كتاب الحيوان، مصدر سابق، ص 22/21.
- 25- الجاحظ، البخلاء، دار بيروت للطباعة والنشر، دط، بيروت، 1980، ص 182/181.
- 26- محمد علي عبد الكريم الرويني، فصول في علم اللغة العام، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2009، ص 222.
- 27- الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج 1، ص 144.
- 28- المصدر نفسه، ج 1، ص 383.
- 29- المصدر نفسه، ج 1، ص 163.
- 30- المصدر نفسه، ج 2، ص 9/8.
- 31- المصدر نفسه، ج 1، ص 145.
- 32- الجاحظ، كتاب الحيوان، مصدر سابق، ج 2، ص 108/105.
- 33- المصدر نفسه، ج 2، ص 108/105.
- 34- الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج 1، ص 137.
- 35- البخلاء، تحقيق طه الحاجري، دار المعارف، القاهرة، ط 5، دت، ص 47.
- 36- المصدر نفسه، ص 01.
- 37- Garmadi Juliette La Sociolinguistique, Presses Universitaires de France, paris . 1er édition 1981, p2
- 38- الجاحظ، الرسائل، رسالة صناعة القواد، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط، 1964، ص 37.